سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

عِظَمُ قَدْرِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم

لفضيلة الشيخ عطيّة محمّد سَالم

سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

عِظَمُ قَدْرِ النَّبيِّ

-صلى الله عليه وسلم-

لفضيلة الشيخ عطيّة محمَّد سَالم

رحمه الله تعالى

القاضي بالمحكمة الكبرى بالمدينة المنورة سابقا ومن علماء المسجد النبوي الشريف

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريع

بسم الله الرَّحمـٰن الرحيم

باسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ سيِّدنا رسول الله، صلَّىٰ اللهُ عليه وعلىٰ آله وصحبه ومن والاه. وبعد،،

أعتذر أوَّلًا للإخوة الحضور ممَّا أشاد به فضيلة الأستاذ المقدِّم من تقحُّم وتَجَشُّم مشاقِّ السَّفر، وأعتقد أن هٰذا كان في الزمن الماضي؛ حين كنا نقطع الطريق من جدة إلىٰ المدينة في عشرة أيام علىٰ الإبل، وحينما كان يذهب الذّاهب من أصحاب رسول الله إلىٰ الأقطار الإسلامية لسماع حديثٍ سمعه عند صحابي آخر، كما فعل جابر في رحلته إلىٰ الفسطاط بمصر لحديثٍ يسمعه من أبي الدَّرداء.

والآن ولله الحمد لا عذر لطالب العلم فقد أصبح المجال واسعًا متيسِّرا، وهذا بفضل الله ورحمته بضَعف الإنسان.

وإني لأشكر الإخوة الذين سعوا في هٰذا الحضور ويسَّروا هذا اللقاء وتحت هذا العنوان المعلِن عن محبته ﷺ ؛ لأنَّ محبة رسول الله هي ميزان الإيمان «**والله لا يؤمن أحدُكم حتىٰ أكون أحب إليه من نفسه وولده ووالديه وماله والناس أجمعين**».[1]

وهكذا أيها الأخوة الحديث عن عظيم قدره ﷺ، فأقول: إنه حديث معنيٌّ بالدعوة والسيرة العطرة بناءً علىٰ طلب الإخوة في مركز الدَّعوة بجدَّة، وهم الذين قد اختاروا هٰذا العنوان:

عظيمُ قدْره ﷺ.

وأقولُ وبالله تعالىٰ التوفيق:

معذرةً أني كتبتُ المحاضرة نظرًا لكبر السِّنِّ، وقد تكون ضعف الذَّاكرة، وكما قال والدُنا الشيخ الأمين: الارتجالُ يعطي طلاقة أوسع، والتحرير يحفظ المعاني أكثر.

أقول وبالله التوفيق:

إنَّ الحديث عن عظيم قدره وعُلُوِّ شأنه قد يكون من جهته هو ﷺ من باب تحصيل الحاصل؛ لأنه لا يستطيع أحد علىٰ الإطلاق أن يأتي بجديد أو يُحصي الموجود أو يزيد؛ ولكنه تنبيه العُقول وإيقاظ القلوب وتشديد الشعور بالمعقول والمنقول، وهذا جهد المقل وحصيلة المشغول.

فمعذرةٌ أيها السّادة الحضور، وكما قيل: والعذر عند كرام النَّاس مقبول.

أقول وبالله تعالىٰ التوفيق:

إن رفعة شأن كل شيء وعظيم قدره إما في اصطفاء الله إياه وهو إما في ذاته أو صفاته أو أفعاله.

وقد اختصَّ الله من الناس ومن الملائكة أفرادا علىٰ بني أجناسهم.

فاختص من الملائكة جبريل عليه السلام وجعله أمينا علىٰ وحيه ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾[التكوير]، وكذلك حملة العرش.

واختص من الناس الرسل صلوات الله عليهم، واختص منهم أولو العزم.

(١) **البخاري**، حديث رقم (١٣). **ومسلم**، حديث رقم (٤٥).

واختص واصطفىٰ من الجميع محمدا ﷺ ، ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج:٥٧].

ولما اعترضوا علىٰ بعث **طالوت** عليهم ملكا بمقياس البشر ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾، كان جوابهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾[البقرة].

فأصل اختياره: اصطفاء الله إياه، ثم أتاه مقوِّمات الْمُلك ومؤهلات السلطة، ﴿بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ وقدَّم العلم لأنه الأساس في التخطيط والسياسة، والجسم للتنفيذ والتطبيق.

وكذلك نبيُّ الله **موسىٰ** حين المناجاة وفرّ فزعا من انقلاب العصا حية تسعىٰ ناداه ربه: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾[الأعراف:١٤٤].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[آل عمران].

وكذلك **مريم** ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران]، وهذا الاصطفاء البشري في إبلاغ رسالة الخالق إلىٰ خلقه، ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ ﴾[فاطر:٣٢]، وفي هذا الاصطفاء رفعة شأن من اصطفاهم وعلو قدرهم.

وقد شمل منهج هذا الاختصاص والاصطفاء بعض المخلوقات من الأمكنة والأزمنة.

فقد اختص من عموم المكان مكة وبيت المقدس والمدينة المنورة بما فيها من المقدَّسات والآيات والبينات، وخصّ الأعمال فيها بمضاعفة الأجر.

ومن الأزمان اختص من الشهور رمضان والأشهر الحرم، ومن الأيام يوم الجمعة، ومن الليالي ليلة الجمعة، ومن الساعات ساعة في يوم الجمعة، وبيّن تعالىٰ موجب اختصاصها عن جنسها، وهذا الاختصاص قد أعلىٰ شأنها وعظم قدرها.

وإذا جئنا إلىٰ موجب اصطفائه سبحانه لرسله ابتداء من آدم عليه السلام إلىٰ عيسىٰ إلىٰ محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين نجد:

آدم كونه أول الخلق من البشر، وأنه خلقه تعالىٰ بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلّمه الأسماء كلها، وأسجد له ملائكته وأسكنه جنته. ويكفيه أولية الخلق وخلقه سبحانه بيديه؛ وفي الأثر: ثلاث خلقهن الله بيده: خلق آدم بيده، وغرس جنة عدن بيده، وكتب الألواح لموسىٰ بيده، وبقية المخلوقات مِن (كن فيكون). ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾[يس].

ونوح عليه السلام خصَّه الله بهذا العمر الطويل بألف سنة إلا خمسين عاما، يساير الليالي والنهار ويصابر قومه ويصبر عليهم، حتىٰ أعلن يأسه منهم ودعا عليهم ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾[نوح]، وقال تعالىٰ في سورة «القمر»: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾.

وإبراهيم عليه السلام يتحدىٰ قومه ويتلطف بأبيه ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾[مريم:٤٢] ويواجه الملك الطاغي النمرود، ولا يبالي بهم جميعا ويحطم آلهتهم ويسخر منهم، ثم يواجهونه ﴿ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ﴾ وقفة هنا لها معناها ﴿كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣﴾[الأنبياء]، فأوقدوا نيرانهم فلم يُبَالِ بهم، وابتلاه الله بكلمات التكليف فأتمهن فجعله الله بإتمامها إمامًا وكان بإمامته أمّة.

أما **موسىٰ** عليه السلام فقد نشأ في رعاية الله من حين مولده، وحفظه من تذبيح فرعون أبناء بني إسرائيل، وقد رعاه رضيعًا، ورعاه في التابوت في اليم، ورعاه في مرضعاته فحرم عليه المراضع كي يُرد إلىٰ أمّه وهم لا يشعرون، رعاه في بيت عدوه حين صار رجلا، رعاه في خروجه إلىٰ مدين، ورعاه عند شعيب، ورعاه عائدا بأهله، ثم هاهو يُبعث إلىٰ فرعون وقومه فيبدأ التحدي بين الحق والباطل، رعاه حين سلك في البحر طريقا يبسا، رعاه حين أهلك عدوه وهو ينظر إهلاكه بعينيه.

وعيسىٰ عليه السلام اصطفىٰ مريم لتكون أمًّا له:

اصطفاها حينما نذرت أمها ما في بطنها.

اصطفاها حينما يُلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم.

اصطفاها ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران:٣٧].

اصطفاها حينما ﴿ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ۝١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾[مريم].

اصطفاها في قوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ۝١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ۝١٨﴾[مريم].

اصطفاها حينما قال لها: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ۝١٩﴾[مريم]، إلىٰ أن جاءت به قومها تحمله وجابهوها بتلك الفِرية، فجعل الله مصدر تهمتها هو بعينه دلالة براءتها حين قال لهم: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ۝٣٠﴾[مريم]، إلىٰ قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾ [مريم:٣٤]، وجاء الوحي فكشف ما التبس عليهم بقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾[آل عمران].

وبعد هذا التمهيد وهذه المقدمة نأتي إلىٰ بيان موجب رَفع شأن وعظيم قدره ﷺ.

لقد ذهب بعضُ المختصين في البحث عن ذلك إلىٰ أول نقطة وجوده ﷺ علىٰ حدّ بداية موسىٰ عليه السلام ونهايته.

وفي نظري أن وجوده ﷺ يرجع إلىٰ أمرين:

- وجود قدري في عالم الملكوت.
- ووجود فعلي في عالم الإنسان.

أما وجوده القدري فقد ذهب البعض فيه إلىٰ مسافات بعيدة، إلىٰ ما قبل آدم عليه السلام، إلا أن بُعد تلك المسافة لم تكن طريقها ممهدة فأجهدتهم، كما أن سلطان العاطفة قد دفعهم إلىٰ أخذ كل ما وجوده مما فيه تعظيمٌ لقدره ﷺ.

وهنا مبحث تعارض العقل مع العاطفة، ولكلٍّ منهُما مقامه.

فمن ذلك علىٰ سبيل المثال لما كانوا في غزوة تبوك وقاموا يتهيؤون لصلاة الصُّبح وذهب ﷺ يتأهب فأبعد وتأخر عليهم، فانتظروا حتىٰ أسفروا وتحيَّروا وانتظروا ليصلِّي بهم، وهل يصلون قبل خروج الوقت أم ينتظرون قدومه؟

فالعاطفة مع الانتظار ليصلِّي بهم.

والعقل مع الإسراع وإدراك الوقت.

فقدّموا العقل وصلىٰ بهم ابن عوف رضي الله تعالىٰ عنه، وجاء ﷺ وهم في الركعة الثانية فأراد المغيرةُ أن ينبه الإمام ليتأخر ويتقدم ﷺ للإمامة، فمنعه النبي ودخل في الصف، ولما سلم الإمام قام ﷺ فأتم الركعة التي فاتته، ولما رآهم أسِفُوا لذلك قال: «**ما قبض الله روح نبي إلا وقد صلىٰ خلف أحد من أمته**» أي أنهم أصبحوا أهلًا للإمامة.

ومن ذلك موقف الصديق لما قال ﷺ في مرضه: «**مروا أبا بكر فليصلي بالناس**» ولما أقيمت الصلاة وجد ﷺ في نفسه خفة فخرج فنبهوه -أي نبهوا أبا بكر فأخذ يتراجع-، فأومأ إليه ﷺ أن مكانك.

فكان أبو بكر بين العاطفة والعقل، فالعاطفة أن لا يتقدَّم علىٰ رسول الله، والعقل أن يمتثل أمره ويبقىٰ مكانه؛ لكنه قدم العاطفة فتأخر وصلىٰ بهم رسول الله، فلما فرغ قال له: «**ما الذي منعك أن تبقىٰ إذ أمَرْتك؟**» اعتذر بقوله: ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدَّم علىٰ رسول الله.

وفي كل من تقدم ابن عوف وتأخر أبي بكر له وجهته وقد أقرّ ﷺ كلٌّ منهما علىٰ فعله، وهكذا لكل مقام مقال.

وجميع كُتّاب السيرة قد ذهبوا في بدايته وبداية وجوده القدري إلىٰ ما قبل وجوده الفعلي.

إلَّا أن منهم من أبعد الغاية وطوّل الطريق فنقلوا آثارا تنتمي إلىٰ ما قبل آدم، فربما إلىٰ ما قبل خلق السمٰوات والأرض، وحصروا أَوَلِّيَةَ الوجود في ثلاثة: العقل والقلم ونور محمد ﷺ، وأن اسمه مكتوب علىٰ ساق العرش وعلىٰ ورق الجنة وثمارها.

ومنهم من وقف عند خلق آدم وآدم بين الروح والجسد، أو وهو مجندل في طينته، وأثبت له النبوة هناك، وقالوا: لقد أخذ نوره يتنقّل في أصلاب آبائه حتىٰ برز إلىٰ الوجود الفعلي مستأنسين بقوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾[الشعراء]، ذهبوا إلىٰ تقلبه تقلب نوره في أصلاب آبائه من النبيين قبله.

ولكن تعقبهم النقاد وقالوا: إن أباه إبراهيم لم يكن أبوه آزر من النبيين ولا حتىٰ من المؤمنين.

ونحن نقول: إن أباه هو -ﷺ- عبد الله لم يكن من النبيين وكان من أهل الفترة علىٰ التحقيق.

وقد ذكر السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «**الخصائص**» الذي قال عنه في مقدمته: كتاب فاق الكتب في نوعه جمعا وإتقانًا، يشرح صدور المهتدين إيقانًا، ويزداد به الذين آمنوا إيمانًا. إلىٰ قوله: مستوعبًا لما تناقله أئمة الحديث بأسانيدها المعتبرة. إلىٰ أن قال: أوردت فيه كل ما ورد ونزهته عن الأخبار الموضوعة وما يُرَد، وتتبعت الطرق والشواهد لما ضعُف من حيث السند. انتهىٰ

وتعقبه الشَّيخ **الهراس** رَحِمَهُ اللَّهُ بأنه لم يلتزم كل ذلك.

وقال في هذا الكتاب -أي السيوطي-: باب خصوصية النبي ﷺ بكونه أوَّل النبيين في الخلق وتَقَدُّمُ نبوته وأخذ الميثاق عليه.

وساق تحت هذا العنوان ما أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» وأبو نُعيم في «الدلائل» من طرق عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ⁽٧⁾﴾[الأحزاب]، قال: «**كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث**» فبدأ به قبْلا.

ونقل السيوطي أيضا أن أبا جعفر محمد بن علي سُئل: كيف صار محمد ﷺ يتقدَّم الأنبياء وهو آخر من بُعث؟ قال: إن الله تعالىٰ لما أخذ من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم علىٰ أنفسهم ألست بربكم كان محمد أول من قال: بلىٰ.

ومن ذلك ما عزاه لأحمد والبخاري في تاريخه وغيرهما عن ميسرة قال قلت: يا رسول الله متىٰ كتبت نبيا؟ قال: «**وآدم بين الروح والجسد**».

وكذلك ما عزاه لأحمد والحاكم والبيهقي عن العرباض بن سارية قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمجندل في طينته**».

وساق أيضا أنّ أعرابيًّا قال للنبي ﷺ: أي شيء كان أول نبوتك؟ قال: «**أخذ الله مني الميثاق لما أخذ من النبيين ميثاقهم ودعوة أبي إبراهيم وبشرىٰ عيسىٰ ورأت أمي في منامها أنه خرج من بين رجليها سراج أضاءت له قصور الشام**» انتهىٰ.

وهذه كلها بدون شك آثار وأخبار تدل علىٰ علوِّ شأنه وعظيم قدره، إلا أن بعضها لم يسلم من النقاد في التفتيش عن السَّند.

وهذا صاحب «**سبل الهدىٰ والرشاد في هدي خير العباد**» قال: هٰذا كتاب اقتضبته من أكثر من ثلاثمائة كتاب. إلىٰ أن قال: ولم أذكر فيه شيئا من الأحاديث الموضوعة. إلىٰ آخره.

قال فيه: الباب الأول في تشريف الله تعالىٰ له ﷺ بكونه أوَّلَ الأنبياء خلقا.

ذكر في هذا الباب أثر ابن أبي حاتم الذي ذكره السيوطي (**كنت أول الأنبياء خلقا**) وذكر المحشّي عليه عدد من خرجه ابن عدي وأبو نعيم وابن كثير في «التاريخ» والثعالبي إلىٰ آخره.

ثم قال: روىٰ أبو سعد النيسابوري في الشرف وابن الجوزي في الوفاء عن كعب الأحبار قال: لما أراد الله سبحانه أن يخلق محمَّدًا ﷺ أمر جبريل أن يأتيه بالطينة التي هي قلب الأرض وبهاؤها ونورها، فهبط جبريل في ملائكة الفردوس وملائكة الرَّفيق الأعلىٰ وقبض قبضة رسول الله ﷺ من موضع قبره الشريف،

وهي بيضاء نيِّرة فعُجنت بماء التسنيم في معين أنهار الجنة حتىٰ صارت كالدرة البيضاء لها شعاع عظيم، ثم طافت بها الملائكة بين العرش والكرسي والسَّمٰوات والأرض، فعرفت الملائكة محمدا قبل أن تعرف آدم أبا البشر.

ثم كان نور محمد يُرىٰ في غرة جبهة آدم، وقيل له: يا آدم هذا سيد ولدك من المرسلين. إلىٰ قوله: ثم لم يزل النور يتنقل من طاهر إلىٰ طاهر إلىٰ أن وُلد ﷺ.

وأقول: وهذا من الإسرائيليات التي تُنقل في غير تشريع.

ثم قال صاحب «**سبل الهدىٰ**»: وفي كتاب «**الأحكام**» **الحافظ الناقد أبي الحسن ابن القطان**: روىٰ علي بن الحسين عن أبيه مرفوعا «**كنت نورا بين يدي ربي** ﷻ **قبل أن يخلق آدم بأربعة عشرة ألف عام**». ولم يعلق المُحَشِّي علىٰ ذلك بشيء.

ونقل في باب آخر قول ابن رجب في اللطائف علىٰ حديث: «**إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين**» قال: المقصود من هذا الحديث أن نبوة النبي ﷺ كانت مذكورة معروفة قبل أن يخلقه الله تعالىٰ ويخرجه إلىٰ دار الدنيا، وأن ذلك كان مكتوبا في أم الكتاب من قبل نفخ الروح في آدم عليه السلام.

ثم قال المؤلف أداءً لأمانة العلم كتعليقٍ علىٰ ذلك قال: تنبيهان:

الأول: ما اشتهر علىٰ ألسنة الناس بلفظ «**كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين**» قال ابن تيمية والزركشي وغيرهما من الحفاظ: لا أصل له، وكذلك قوله: «**كنت ولا آدم ولا ماء ولا طين**».

الثاني نقل عن السبكي قوله: لم يصب من فسر «**كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد**» بأنه سيصير نبيا؛ لأن علم الله تعالىٰ محيط بجميع الأشياء. إلىٰ آخر كلامه الملخص في أنه لو كان المراد ما كان في علم الله لما كان للنبي ﷺ زيادة فضل علىٰ غيره سواء من الأنبياء أم عامة الخلق.

وهنا يمكن أن يقال تعليقا علىٰ هذين التنبيهين:

أما (الأول) فإننا لم نجد النص الذي قال عنه الإمام ابن تيمية أنه لا أصل له، ثم إنه لم ينقل لنا عن هذا الإمام الجليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ -وهو الناقد البصير- عن قضية النور شيئا، ولا عن تقلبه في الأصلاب حتىٰ ولد.

ولعل مما يناسب ذكره هنا ما ذكره ابن هشام وغيره أن أخت ورقة بن نوفل لقيت عبد الله والد النبي ﷺ يوم مفاداته بمائة من الإبل فقالت له: هل لك أن تذهب معي إلىٰ بيتي ساعة ولك مائة من الإبل مثل التي فديت بها اليوم. فاستمهلها حتىٰ يصل مع أبيه إلىٰ بيته؛ ولكن أباه لم يذهب إلىٰ البيت وذهب إلىٰ بني زهرة وخطب له آمنة بنت وهب فتزوجها ودخل عليها في ليلته فحملت برسول الله ﷺ، ومن الغد لقيته تلك المرأة فاعترضت عنه فقال لها: مالك لا تعرضين علي اليوم ما عرضتِه عليَّ بالأمس. فقالت: أما الآن فلا حاجة لي بك، كنت بالأمس أرىٰ بين عينيك وبيص نور طمعت أن أظفر به ولكن فازت به بنت وهب.

ويمكن أن يقال: إن هذا الخبر مع حديث تقلب النور في الأصلاب ولو ضعفت الأسانيد فإنه يشد بعضها بعضا ولاسيما أنها ليست تشريعًا.

وقد ساق صاحب (**سبل الرشاد**) صفة هذا النور بين عيني عبد الله بطرق متعددة، منها ما عزاه لفاطمة الخثعمية، وذكر من هذا الطريق جوابا لعبد الله لهذه المرأة يدل علىٰ رفضه ما عرضته عليه فقال:

أما الحرام فالممات دونه والحل حل فلا أستدينه
فكيف بالأمر الذي تبغينه يحمي الكريم عرضه ودينه

ثم روىٰ عن البيهقي وأبي نعيم عن ابن شهاب أن عبد الله كان أحسن رجل رئي فمر علىٰ نساء من قريش فقالت امرأة منهن: أيتكن يتزوج هذا الفتىٰ فتصطبَّ النور الذي بين عينيه، فإني أرىٰ بين عينيه نورا. إلىٰ آخره.

فرؤية النور بين عيني والده الوارد بطرق متعددة سالمة أسانيدها من الوضع كما قال عنها أصحابها، لاشك أنها تترك أثرا بالغا في الدلالة علىٰ عظيم قدره وعلو شأنه وطهارة نسبه من نكاح لا سفاح فيه، كما قال القائل في ذلك:

نسبٌ كأنَّ عليه من شمس الضحىٰ نورا ومن فلق الصباح عمودا

كيف لا! والله تعالىٰ يقول في حق إحدىٰ زوجاته ما يعم أهل البيت جميعا: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[الأحزاب]، فالرسول ﷺ أولىٰ وأحق بذلك، وكما قيل: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كيف وقد قال تعالىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾﴾ [المدثر]، وطهارة نسبه أولىٰ وأحق.

وبعد هذا التمهيد الطويل نقول: إن بيان عظيم قدره وعلو شأنه قد يكون بالنسبة إليه -كما أسلفنا- بمثابة تحصيل الحاصل، وأنه في غِنًىٰ عن ذلك لأنه في ذاته معجزة تشهد بعلوِّ قدره ورفعة شأنه كما قال ابن رواحة رضي الله تعالىٰ عنه:

لو لم تكن فيه آيات مبيِّنة لكان منظره ينبيك بالخبر

ولدينا من النصوص الصحيحة الصريحة من الكتاب والسنة ما يغني، ولن نبعد أو تبعد بنا كما أبعد الآخرون، وإن كان المبدأ عند البعض قول البوصيري في «البردة»:

دَعْ ما ادعته النصارىٰ في نبيهم واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

وقد نبهنا علىٰ أنه ﷺ له وجود قدري ووجود فعلي، وكلا الوجودين موجودة في الكتاب والسنة.

وقبل المجيء إلىٰ الكتاب والسنة وهما الأساسان العظيمان مع ما صحَّ وثبت من أخبار التاريخ، نُجَدِّدُ التنبيه علىٰ أنَّ النصوص والآثار وصحيح الأخبار في هذا الموضوع أكثرَ من أن تحصر وأوفىٰ من أن تذكر، وقد جمع جلها علماء السيرة والتاريخ والخصائص، ونحن هنا نكتفي بالبعض، وفي البعض ما يغني عن الكل.

فمن الوجود القدري في كتاب الله الآتي علىٰ سبيل المثال:

أولا قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ

أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[الأعراف]، فكونه مكتوبًا عندهم في كتبهم وبيان منهج رسالته من أمره وتخفيفٍ في التشريع دلالةٌ قاطعة علىٰ وجوده القدري في رفعة شأنه وعلو قدره.

ثم إن هذا النص المنوه عنه والمأخوذ عليهم الميثاق به في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[آل عمران]، فأخْذ الميثاق عليهم وتوثيقه بإشهاد بعضهم علىٰ بعض والله معهم من الشاهدين، دليل عظيم علىٰ عظيم قدره في عالم الملكوت والملائكة والأمم من قبل.

ثم إنه سبحانه قد عرّفهم إيَّاه بشخصه كما يعرفون أبناءهم فقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾[البقرة].

وسأل عمر رضي الله تعالىٰ عنه أُبي بن كعب: ما هذه المعرفة التي عرفكم إياها الله بمحمد؟ فقالت: والله يا عمر إني لأعرفه أكثر وأشد مما أعرف ولدي؛ لأن معرفتي إياه عن طريق الوحي، أما معرفتي بولدي فعن طريق أمِّه، والنسوة يختلفن.

وجاء مصداق تلك المعرفة أن عيسىٰ عليه السلام لما بشَّر به سماه باسمه ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[الصف:٦] فقد ذكره قبل مجيئه وسماه باسمه، فهذا أيضا من أعظم الدلائل علىٰ علو شأنه وعظيم قدره.

وجاءت السنة توضح تطبيق الميثاق عليهم باتباعه في حقِّ كل من موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام:

أما موسىٰ فبمجيء عمر بصحيفة من التوراة قد أعجبه ما فيها، فقال له رسول الله ﷺ: «**ألم آتِ بها بيضاء نقية يا ابن الخطاب؟ والله لو كان موسىٰ حيا ما وسعه إلا اتباعي**».

وأما عيسىٰ عليه السلام فسينزل حينما ينزل ويقتل الخنزير ويكسِّر الصَّليب ويحكم بشريعة محمد ﷺ.

ومن وضوح الدلالة علىٰ عظيم قدره وعلو شأنه أن الله تعالىٰ عرّفه وعرّف أصحابه معه في كل من التوراة والإنجيل بالأمثلة المعبرة لكل من اليهود والنصارىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾[الفتح].

تنبيه: لا شك أن تسجيل صفات الصحابة رضوان الله تعالىٰ عليهم في الكتابين السابقين مع تعريفه ﷺ شرف عظيم لهم وتكريم جليل له في بيان نوعية الذين معه، وأنه -تعالىٰ- كما اختاره واصطفاه اختار واصطفىٰ له من يكون معه في أعلىٰ المستويات، ومما يسترعي الانتباه أنه لم يقتصر علىٰ مثال واحد في الأمتين اليهود والنصارىٰ؛ بل أفرد كل أمة بمثال مستقل ومغاير للآخر، فجعل مثالهم لليهود روحانيًّا

ساميا ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، وذلك أنَّ اليهود غلبت عليهم الماديَّات فاحتالوا علىٰ ما حرم الله، وظهر ذلك في قضية يوم السبت.

بيّن سبحانه وتعالىٰ فضل أصحاب رسول الله بعملهم فضلا من الله عزفوا عن الدنيا ورغبوا في الآخرة ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ سماحةً ونورًا ورونقا وبهاء، استنارت قلوبهم بالطاعة ففاضت علىٰ محيّاهم بالنور، ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ المنزّلة علىٰ اليهود، ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ المنزّل علىٰ النصارىٰ ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾، وهو النبْت الذي يخرج في أصل العود كالذُرَة والحب، وكبر ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ فأزرالفرعُ الأصل ﴿فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ﴾، وقام ﴿عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ مستويًا ملتفًّا بعضه ببعض في قوة يشد بعضه بعضا ليعظم منظره، ويجودُ مخبره ويضاعف إنتاجه ومحصوله ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾، ويقدِّم لهم هذا الوعد المحتوم، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾.

وهنا ما يسترعِي الانتباه:

- أنه سبحانه خصَّ اليهود بالوصف بالجانب الرُّوحي في العبادة وابتغاء الفضل من الله.
- وخصَّ النَّصارىٰ بالوصف بالجانب المادي الزرع والاستثمار.

وللمتأمِّل المسترشد أن يقول: إن كل مثال في مكانه أبلغ، وهو لمن خصَّه به أنسب.

لأن اليهود غلبت عليهم القسوة والشِّدة، فوُصف لهم أصحاب محمد بالرحمة ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، واليهود سيطرت عليهم المادة حتىٰ احتالوا علىٰ ما حرّم الله، وتهرّبوا من التزامهم بالشريعة كالصيد المحرَّم عليهم يوم السبت ألقوا الشِّباك يوم الجمعة وسحبوها يوم الأحد، والشحوم التي أذابوها وجَمَلوها وباعوها وأكلوا ثمنها وهي محرمة عليهم، وتخاذلهم عن دخول الأرض التي أمروا بها وقالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾[المائدة].

بينما أصحاب محمَّد وقَّافون عند النهي سباقون عند الأمر، وهم القائلون يوم بدر: والله لا نقول لك كما قالت اليهود لموسىٰ ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، والله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك.

فلعل اليهود بسماعهم وصف أصحاب محمد بذاته يكبحون جماح المادة ويعودون إلىٰ الله.

أما النصارىٰ فكانوا علىٰ نقيض ما عليه اليهود أهملوا الجانب المادي وأغرقوا في الرهبنة فعطَّلوا مناهج الحياة ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[الحديد:٢٧]، فلعلهم بسماع وصف أصحاب محمد بالزرع والنماء يخفِّفون من رهبانيتهم وينتبهون إلىٰ أعمالهم؛ أعمال دنياهم.

وبهذه المناسبة فإن هذه الأمة وأصحاب محمد ﷺ فقد أخذوا بأحسن الخطتين الموضَّح في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾[الجمعة:٩]،

إلىٰ قوله: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[الجمعة]، فجمعوا بين السَّعي إلىٰ ذكر الله والانتشار في الأرض.

أما الوجود الفعلي في الكتاب والسنة فمثل قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾[المدثر]، وقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[التوبة]، أي تعرفون نسبه ومولده وصدقه وأمانته، وقراءة ﴿مِّنْ أَنفَسِكُمْ ﴾ من النفاسة ورفعة الشأن وعلو القدر.

افتتاحية رسالته وهو النبيّ الأمي بالأمر بالقراءة وبالعلم والتنويه بشأن هذه الأمية في حقه ﷺ ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾[الجمعة]، فنجد والله أعظم ما يكون من عظيم قدر، إذ أصبحت الأمِّيَّة إذ هي عيب في حق صاحبها تعود مدحا في حقه ﷺ وكمالا، ويُعَلِّم الأمة الكتاب والحكمة ولم يقتصر تعليمُه علىٰ معاصريه بل يمتد من بعده لآخرين منهم لم يلحقوا بهم، ثم يطاول الزمن بالأزمان والأجيال إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها، وذلك باستمرارية معجزته الخالدة القرآن الكريم الذي تعهَّد الله تعالىٰ بحفظه، بخلاف معجزات الأنبياء قبله فهي مؤقَّتة بأزمانهم مختصة بأشخاصهم، والقرآن كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾[الزخرف:٤٤]، ثم إن النبي ﷺ وضع المنهج القويم بالتَّصديق العملي الدائم بقوله: «**تركتُ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدا كتاب الله وسنتي**».

فإنزال القرآن عليه وحفظ الله تعالىٰ إياه واستمرار العمل به أعظم ما يعلي قدره ويعظم شأنه.

ومن التنبيه علىٰ علو شأنه وعظيم قدره من كتاب الله افتتاحية سورة «الفتح» ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾، نزلت في صلح الحديبية، وفعلا كان صلح الحديبية فتحا وقد سأل عمر رسول الله ﷺ: أفتح هو حقا يا رسول الله؟ قال: «**نعم، إنه لفتح**».

ويكفي في كونه فتحا ومبينا أنْ تجلس قريشٌ مع النبي ﷺ معا -كما يقال- معا علىٰ مائدة المفاوضات، وتجتمع تواقيعهم عل صحيفة الصلح التي انتزعت منهم الاعتراف الفعلي بالكيان الإسلامي، ويقف الجميع جنبا إلىٰ جنب في العرف السياسي والعسكري، وقد دخل في الإسلام بهذا الفتح في مدة سنتين نحو عشرة آلاف أضعاف ما دخل فيه من قبل.

ثم جاء الفتح الأكبر فتح مكة الذي جاء بالحق وأزهق الباطل، وتهاوتِ الأصنام المعلَّقة بالكعبة بمجرد الإشارة إليها بقضيب في يده.

وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وكان يقوم الليل حتىٰ تتفطر قدماه شكرا لله، وقد يقول قائل: وأي ذنب كان منه وهو المعصوم ولكنه رفع لدرجاته وتعظيم لقدره.

وأما إتمام النعمة عليه لقد أتم تمامها في الحج خاتمة أعماله ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ﴾[المائدة:٣]، إلىٰ آخره.

وقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾[الفتح] قد يكون في صيغة الوعد والوعد من الله حق، وقد بيّن تعالىٰ أنه صدق وعده معه ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾[الأنعام:١٦١]، وجعله هاديا مهديا؛ ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾[الشورىٰ]، ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾[الفتح]، ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾[النصر] السورة، وسورة الضحىٰ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾، ردا علىٰ الشامتين في فترة فتور الوحي فقالوا: تركه ربه وأبغضه. فأكذبهم وأعْظَمَ له العِوَض ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤﴾[الضحىٰ]، ولا حد لهذه الخيرية إلا ما يرضيه ﷺ ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾[الضحىٰ]، وقد بين ﷺ عظم هذا العطاء حيث أنه في اليوم الذي يقول كل نبي: نفْسي نفسي. أما هو فيبعثه المقام المحمود الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون حين يعطيه الله الشفاعة العظمىٰ علىٰ ما سيأتي .

وسورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾ وما جاء فيها من الآيات الكريمات إلىٰ قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾[الشرح]، قال القرطبي: قال مجاهد يعني في التأذين: وفيه يقول حسان:

أغرّ عليه بالنبوة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبي إلىٰ اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن: أشهد

وروىٰ عن الضحاك عن ابن عباس قال: يقول له: ما ذكرتُ إلا ذكرت معي في الأذان والإقامة والتشهد ويوم الجمعة علىٰ المنابر، ويوم الفطر ويوم الأضحىٰ، وأيام التشريق، ويوم عرفة، وعلىٰ الصفا والمروة، وفي مشارق الأرض ومغاربها. انتهىٰ

أقول: وعند دخول المسجد و الخروج منه وقبل وبعد الدعاء.

وقيل: أعلينا ذكرك في الكتب المنزلة. إلىٰ آخر ما ذكره من المقام المحمود؛ بل وفي قضية تظاهر نسائه عليه ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾[التحريم]، إلىٰ آخره.

وهذه العناية به وحسن موالاته لاشك أنها من عظيم قدره عند الله وجبريل وصالح المؤمنين وعموم الملائكة المكرمين.

ثم في الصلاة والتسليم عليه جعلها الله قربة وأثاب علىٰ الصلاة مرة بعشر صلوات من الله، وهذا لاشك تعظيما لقدره.

ومن صحيح الأخبار والآثار قوله ﷺ: «**إن الله اختار من الناس العرب واختار من العرب كنانة، وتختار من كنانة قريشا واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم فأنا خيار من خيار من خيار**».

وكذلك حفظ نسبه الشريف من أن يصيبه من وبر الجاهلية رغم طول الزمن في فترة آبائه منذ آدم وحواء، وقد أفصح ﷺ بقوله: «**ولدتُ من نكاح لا سفاح فيه**» علما أنهم كانوا يتوسعون في مدلول النكاح عندهم علىٰ ما جاء عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها: كان النكاح في الجاهلية علىٰ أربعة أنحاء. علىٰ رواية عروة عند البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ وأبي داود أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أخبرته أن النكاح في الجاهلية كان علىٰ أربعة أوجه:

نكاح منها نكاح الناس اليوم؛ يخطب الرجل إلىٰ الرجل وليته أو ابنته فيُصدقها ثم ينكحها.

ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلىٰ فلان فاستبضعي منه ويعتزلها زوجها ولا يمسها حتىٰ يتبين حملها من ذلك الذي تستبضع منه، فإذا تبيَّن حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هٰذا النكاح يسمىٰ نكاح الاستبضاع.

ونكاح أخر يجتمع الرهط دون العشرة فيدخلون علىٰ المرأة كلهم فيصيبونها، فإذا حملت ووضعت ومرّ ليالي بعد أن تضع جملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتىٰ يجتمعوا عندها فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت فهو ابنك يا فلان، فتسمي من أحبت باسمه ويلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل.

ونكاح رابع... إلىٰ آخر ما ذكرت... ثم ألحقوا به ولدهم.

فلما بعث الله محمدا ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: وكان يوجد نكاح البدل يقول الرجل لآخر انزل لي عن زوجتك وأنزل لك عن زوجتي، ونكاح الخدن ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ﴾[النساء:٢٥]، أي ما استتر، ونكاح المتعة.

ونقول: وكذلك السبايا في إغارة بعضهم علىٰ بعض كما قيل فيه:

وبنت قران قد نكحنا وليس لنا خاطب إلا السنان وعامله

وكل ذلك علىٰ التوسع فيه، لم يصب منه نسبه الشريف ولا واحدا منها، مع أنه لم يكن معيبا عندهم.

وجاء عن ابن عباس عند قوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ﴾[الشورىٰ:٢٣]: ما من قبيلة إلا وله فيها قرابة.

وقال القاضي عياض في «الشِّفا» ما نصه: رُوي عن علي رضي الله تعالىٰ عنه في قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الشورىٰ:١١]، قال نسبا قرابة الآباء، وصهرا قال البيضاوي في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ﴾[الفرقان:٥٤]؛ أي: ذو نسب ذكورٍ يُنسب إليهم، وذوات صهر أي: إناث يصاهر بهن.. إلىٰ قوله: ليس في آبائه سفاح كلُّها نكاح.

ثم نقل عن ابن الكلبي قوله: عددت للنبي ﷺ خمسمائة أم فما وجدت فيهن سفاحًا ولا ما كان عليه أمر الجاهلية، وتعقبه القاضي في كونه يذكر هذا العدد خمسمائة بقوله: لعله أراد الأعمام والخالات وأراد الكثرة، وقال: إنما بينه وبين عدنان أحد وعشرون أبا إجماعا وبين عدنان وآدم ستة وعشرون أبا، فيكون بينه وبين آدم سبعة وأربعون أبا وسبع وأربعون أمّا.

أحداث الإيجاد أي الإيجاد الفعلي:

أولا: أحداث يوم مولده رفعا لشأنه وتعظيما لقدره.

انصداع الإيوان أي إيوان كسرىٰ، وهذا الصدع أيها الإخوة لا زال إلىٰ اليوم موجودا، ولما جئنا إلىٰ المدائن، وجئنا إلىٰ إيوان كسرىٰ نظرتُ فإذا صدع في الجدار علىٰ مستوىٰ ارتفاع ما يقرب من عشرة أمتار، والصيوان أو الإيوان ارتفاعه لا يقل عن عشرين مترا، وجداره من أسفل من الأساس بعرض المترين وينتهي في الأعلىٰ إلىٰ نصف المتر، وهذا الصدع تأملت ونظرت فإذا بالملحق الثقافي في السفارة

السعودية يقول: ماذا تبحث يا فلان؟ قلت ابحث عن جهة القبلة وأين تقع مكة فأشار إلىٰ الجهة التي فيها الصدع في هذا الجدار، فقلت: نعم فالله أكبر، قال: علىٰ ماذا؟ قلت: هذا الصدع قديم؛ لأنه ما جاءت الأخبار فيه أنه انصدع يوم ولد ﷺ، فسأل المسؤولين هناك عن السياحة: متىٰ كان هذا؟ قالوا: جئنا وهو موجود ولا نعلم له تاريخ، فلا زال موجودا هذا الصدع في هذا الإيوان في هذا الجدار.

ومن ذلك: إخماد نار فارس، وجفاف بحيرة ساوىٰ بما فيه من تنبيه عالمي بحدث جديد.

ثانيا: أحداث رضاعه مع حليمة مرضعته من نماء ونزول خير وبركة ومن شق صدره في طفولته، نعم وألف نعم، في كل ما تقدم ما يفصح ويوضح عظيم قدره وعلو شأنه، صلوات الله وسلامه عليه.

بل إن في ذاته وصفاته من حيث خلْقه وخلُقه العظيم وحسبه ونسبه الطاهر وما أجراه الله له من الأخبار عنه قبل مجيئه، والأخبار عن أصحابه معه، وأخذ المواثيق والعهود له من النبيِّين قبله وإشهاد بعضهم علىٰ بعض، وشهادة الله معهم لئن جاءهم في أزمانهم ليؤمنن به ولينصرنه، وفي دعوة إبراهيم وبشرىٰ وعيسىٰ وموسىٰ، ليلة الإسراء من لقاء الأنبياء وصلاته بهم، وما اطلع عليه نتائج أعمال العباد من جنة أو نار، وسدرة المنتهىٰ حين ينتهي جبريل ويقول: تقدم أنت يا محمد، ويغشىٰ السدرة ما يغشىٰ، ولم يزل بكامل حسه وإدراكه، ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾[النجم]، وما كُشف له عن مغيبات الملإ الأعلىٰ، فأصبح الغيب له عِيانا كل ذلك قطعا أو بعضه لدَلالة قاطعة علىٰ عظيم قدره وعلو شأنه صلوات الله وسلامه عليه.

ومما يزيد في علوِّ قدره في ذلك أنها كلها خاصة بجنابه لم يشاركه ولا في واحدة منها ولا أحد من الخلق لا قبله ولا بعده.

وهذا باعتراف العقلاء وشهادة الأعداء كما جاء عن هرقل وملوك العرب وشهد به النجاشي وغيرهم.

علو قدره في أفعاله التي تنسب إليه هو وهذا هو **المجال الثالث** بعد الذات والصفات وهو أفعاله ﷺ التي تصدر عنه وتنسب إليه.

وهذا القسم هو أشد ما تنبغي العناية به لأنه موضع التأسي به فيه لأنه في طوق البشر، وذلك استجابة لقوله تعالىٰ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ [الأحزاب:٢١]؛ لأنه يتأتىٰ التأسي به في ما يخصه في ذاته وفي صفاته، لا في نسبه، ولا في حسبه، ولا في خَلقه، ولا في خُلقه، ولا في الإسراء والمعراج، ولا في شقِّ الصدع ولا انشقاق القمر، ولا حنين الجذع، ولا نبع الماء من بين أصابعه، ولا تكثير الطعام فيطعم أهل الخندق من عناق جابر وتكثير الماء ويسقي الجيش ودوابه من مزادة المرأة المشركة ولا تسبيح الحصىٰ في كفه، ولا في غير ذلك من المعجزات الباهرات التي لا دخل للبشر فيها ولا طاقة لهم عليه.

إنما التأسي في أفعاله وأقواله وإن تفاوت البشر في الطاقة والاستطاعة علىٰ حد قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾[فصلت]، وقوله: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المطففين]، وقد بين تعالىٰ طرفي التأسي الأدبي الأدنىٰ والأعلىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا

تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل].

وبعدها مباشرة يأتي ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾[الإسراء:١]، فالحد الأدنىٰ للعامة هو المقاصة بالمثل، ثم نوّه بفضل الصبر وأنه خير للصابرين ثم ندبه هو ﷺ إلىٰ الصبر وهو مجال التأسي، وأشار إلىٰ أن يكون الصبر لله ليس لعوض ولا عن عجز، ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[الشورىٰ:٤٠]، وقوله: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [فصلت:٣٤]، فهذا مقام الكمَلَةِ من الرجال وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

نقول: إن مظاهر عظيم قدره في هذا القسم من أفعاله موجود منه ﷺ فيما قبل البعثة وما بعدها:

أما قبل البعثة: في قضية زيد بن حارثة أُختطف من أمه في الطريق وبيع في مكة، فاشتراه حكيم بن حزام وأهداه إلىٰ خديجة رضي الله تعالىٰ عنها فأهدته إلىٰ رسول الله ليخدمه، وكان أبوه يتسابق الركب ويتقصىٰ أين هو؟ فعلم أنه عند محمد في مكة، فجاء ومعه عم زيد ومعه الفداء، وأتىٰ إلىٰ محمد بن عبد الله وقال: يا محمد علمت أنك رحيم كريم وأنك لا ترد سائل، وإن ابني عندك وقد جئتك بفدائه، فأرجو أن تقبل منا الفداء، وأن تعطينا ولدنا. فقال له محمد: أو غير ذلك. قال: وما هو؟ قال: أن أدعوه وأخيِّره بيني وبينكم فإن اختاركم فهو لكم بدون فداء، وإن اختارني فما أنا بمفاد من يختارني علىٰ أهله. قال: والله لقد أنصفتنا.

فاستدعاه وقال له: يا زيد أتعرف هذين. قال: نعم، هذا أبي وهذا عمي.

قال: قد جاؤوا بفدائك، وقد أخبرتهم بما قلت لهم: كذا وكذا فاختر من شئت يا زيد. قال: والله لا أختار عليك أحدا سواك أبدا.

فقال أبوه: ويحك يا زيد، أتختار الغربة والرِّق علىٰ الأهل والحرية؟ قال: نعم وما لي لا أختار ذلك، والله مذ صحبته، ما قال: لي في شيء فعلته: لم فعلت؟ ولا لشيء لم أفعله: لِم لَم تفعله؟

هناك يئس أبوه من عودته، واطمأن علىٰ حياة ولده أنها في سعادة، هناك كافأه رسول الله وأخذه وطاف به بالكعبة وقال: زيد ابني. تبناه وكان التبني سائدا في الجاهلية، فقرَّت عين أبيه وتركه عند محمد ورجع إلىٰ بلده.

إن حُسن معاملته لخادمه، وذلك قبل شرف البعثة، لدليل قاطع علىٰ علو قدره وعظيم شأنه ﷺ، وكان ولا يزال حِبَّ رسول الله.

ومن ذلك قبل البعثة قضية الحجر الأسود، لما أرادوا إعادة بناء الكعبة وقسَّموا جهاتها الأربعة علىٰ القبائل، وبدأت كل قبيلة تبني حصتها وارتفع البناء إلىٰ مستوىٰ الحجر الأسود، توقفوا من يحظىٰ بشرف وضع الحجر الأسود مكانه، وتنافسوا وتنازعوا حتىٰ أحضروا الدم وغمسوا أيديهم إيذانا بالقتال.

لكن رحمهم الله بقول القائل: علىٰ ما يقتل بعضنا بعضا؟ فلنحكِّم أول من يخرج علينا من هذا الفج، وانتظروا فإذا أول من يخرج عليهم محمد بن عبد الله، فنطقوا وبصوت واحد بكلمة واحدة: الأمين ارتضيناه. فجاء الأمين وانتزعت منهم هذه الصفة فقصوا عليه القصة، قال: نعم، فأخذ رداءه عن كتفيه

وبسطه في الأرض وأخذ الحجر بيديه الكريمتين ووضعه وسط الرداء وقال: لتأخذ كل قبيلة بطرف من الرداء، واشتركوا جميعا في رفعه إلىٰ مستواه ثم أخذه ﷺ بيديه ووضعه مكانه، فحاز الشرف الذي تنافسوا فيه وكادوا عليه يقتتلون، وأرضىٰ الجميع.

فقضية بلغ اهتمامهم فيها حتىٰ الاقتتال عليها يرتضون لها ويأتمنون عليها محمد بن عبد الله لأكبر دليل علىٰ علو شأنه وعظيم قدره، وفعلا فقد أنهىٰ الخلاف بينهم بأمانة، وأرضىٰ الجميع فيها، فلما عرضوها عليه فعل كما أسلفنا.

ما بعد الرسالة: أما ما بعد الرسالة فهو أجل وأعظم؛ لأنها ضمن التكاليف والتشريعات.

من ذلك مواجهته أهل مكة بما لا يألفونه وما فيه تسفيه أحلامهم وبطلان عبادة آلهتهم ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾[الحجر:٩٤]، اصدع ولا تخافنَّ ولا تُخافت وأعلن ولا تُسارر، واملأ أجواء مكة بكلمة (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

إنه أمر وتكليف ولما كان هذا يجلب سُخط المشركين أمر أن يعرض عنهم ﴿ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الحجر]، ولما كان أيضا سيعرضه للهُزؤ والسخرية قدم لهم الضمان ﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الحجر:٩٥]، إلىٰ أن بيّن واقع ذلك عليه من ضيق الصدر وحرج النفس فقال: ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾[الحجر]، أي وداوم علىٰ ذلك ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾[الحجر].

كذلك دعوته قومه إلىٰ الصفا وإعلانه الدعوة إلىٰ الله فيها ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء].

عزيمته ومُضيُّه ورفضه التوقف أو الترك ولو ثامنوه بالشمس والقمر؛ أي لما لقي ومن معه نتيجة الصحيفة الظالمة بانحيازهم في الشِّعب حتىٰ أكلوا ورق الشجر.

مواجهته وصبره علىٰ فقدان الحماية في عمه والرعاية في زوجه، خروجه إلىٰ الطائف يرتاد موطنا رحْبا لدعوته وما لقي من ثقيف، الموقف الذي أضجر الملائكة وتعاطفوا معه لِما سمعوا منه تلك المناجاة التي ضاقت بها الأرض وارتجفت لها السماء حين قال: «**اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَىٰ النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي، إلىٰ مَنْ تَكِلُنِي؟ إلىٰ بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَمْ إلىٰ عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلاَ أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَىٰ حَتَّىٰ تَرْضَىٰ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِكَ**» ذكره ابن هشام وغيره.

وفي هٰذا السياق يسوق ابن كثير في التاريخ أنه ﷺ لما عرض نفسَه علىٰ عبد ياليل ولم يجبه أحد خرج مهموما ولم يفق إلا وهو بقرن الثعالب، فإذا بسحابة قد أظلّته قال: «**فنظرت فإذا بها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث لك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. ثم ناداني ملَك الجبال فسلم عليّ ثم قال: يا محمد إن الله بعثني إليك بما شئت، إن شئت أطبق الأخشبين عليهم. فقال** ﷺ: **لا؛ أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا**» انتهىٰ.

وعند صاحب «سبل الهدىٰ والرشاد»: «إني لآني بهم» يعني أتأنىٰ ولا أعجل، وقد سمعت في بعض الطرق أنه قال معتذرا عنهم: «**اللّهمَّ اهد قومي فإنهم لا يعلمون**».

وذكر صاحب «سبل الهدىٰ» أيضا أن ملك الجبال قال: حقا كما سماك ربك رءوف رحيم.

فأي قدْر أعظم من أن يعتذر عمن أذاه، ويحسن لمن أساء إليه، ويتأنىٰ من سيخرج من أصلابهم إن لم يكن هٰؤلاء أنفسهم، إنه موقف يجل عن الوصف.

وهنا يرد علىٰ الذهن حالا:

موقف نبي الله **نوح** حين غاضبه قومه دعا عليهم بالاستئصال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾[نوح] وأيِسَ مما في أصلابهم ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح].

ونبي الله **موسىٰ** عليه السلام بعد طول حوار مع فرعون وقومه دعا عليهم ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾[يونس].

فأي عظمة في قانون البشر من ذلك، نوح وموسىٰ يدعوان بهلاك قومهما، ومحمد يتأنىٰ بقومه رجاء بما في أصلابهم، وفي هذا يقول ﷺ: «**لكل نبي دعوة فاستعجلوا بها، وأنا ادخرت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة**».

وهنا قد يخطر ببال البعض أن رحلة الطائف لن تؤتي ثمارها، والواقع أنها أتت بما هو أعظم من إيمان ثقيف، وذلك لما قام ﷺ بوادي نخلة يصلي فاستمع إليه نفر من الجن ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا﴾ إلىٰ قولهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾[الأحقاف:٢٩-٣١]، فكان في ذلك إبلاغ الدعوة إلىٰ أحد الثقلين كاملا.

ثم جاء إلىٰ مكة وفي عودته من الطائف، وكان قد طلب من ثقيف أن تكتم عنه فلم تفعل وبلغ خبره أهل مكة ومنعوه الدخول إليها حتىٰ طلب من يجيره في دخولها ودخل في جوار المطعم بن عدي وهو علىٰ دين قومه.

وهنا ينشأ السؤال: نبي مرسل يُرسل له الله ملك الجبال قوة بين يديه، والآن يرضىٰ بنفسه أن يدخل في جوار رجل مشرك، وأن يكون للمشرك يدا عنده، وفي مكة كبار الشجعان من أصحابه حمزة وعمر وأبو بكر وغيرهم، ولكن لا غرو في ذلك، إنها الحكمة وبُعد النظر وحسن السياسة كشفت عن ذلك حنكة أبي سفيان حين وجد المطعم يطوف بالبيت وأبناؤه سبعة في سلاحهم حول الكعبة فدنا منه وسأله: أمجير أنت أم تابع؟ فيقول: مجير. فيقول له: لقد أجرنا من أجرت.

والفرق بينهما في ميزان أبي سفيان العسكري، ومنهجه العدائي أنه:

إن كان مجيرا، فالجوار مَكْرُمة تحافظ عليها العرب وتفخر بها، فلا بأس إذن.

أما إذا كان تابعا؛ أي: أسلم وتبع محمد فيكون هذا تحديا لأهل مكة كلهم ولم يسكتوا علىٰ ذلك التحدي فتكون حربا أهلية.

وبهذا يتبين لنا لماذا لم يدخل ﷺ في جوار أحد من أتباعه حفاظا عليهم من حرب لا طاقة لهم بها آنذاك.

ثم جاء حدث الإسراء وتقدم الحديث عنه، وكأنه بمثابة التَّغطية والتعويض عما لحقه من ثقيف وأهل مكة، خاصة عند سدرة المنتهىٰ ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾[النجم].

ثم جاءت الهجرة والحديث عن الهجرة من موجباتها: الإعداد لها، كتمانها، منهجها، أحداثها نتائجها، ليستغرق الوقت ويستفرغ الجهد، وسبق أن قدمت فيه محاضرة بعنوان (معالم علىٰ طريق الهجرة)، خاصة المؤاخاة والصحيفة وثيقة الارتباط للتعهد والمؤاخاة بين المختلفين.

ثم كانت السرايا والغزوات وفي جميع ذلك تسجيلات لمواقف عظيم قدره وعلو شأنه.

نختار منها موقفا واحدا هو آخر مواقفه في غزواته وهي فتح مكة:

حين وقف بباب الكعبة وأهل مكة مجتمعين عنده وقال مقالته بعيدة الدَّلالة: «**ماذا ترونني فاعل بكم؟**» وعليهم أن يتذكروا حالا أفعالهم إساءتهم، فإذا بصحيفة مليئة بالإساءة فماذا عساهم قائلون، وهم الآن في قبضته وتحت سلطته، ما كان منهم إلا أن يلتمسوا الرحمة وصلة الرحم: أخ كريم وابن أخ كريم. هناك عندما انخفضت رؤوسهم وغضوا أصواتهم وراح عنهم كبرياؤهم وتخلىٰ عنهم طغيانهم، أرسلها في رقة وعاطفة وعزة وإباء: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

طلقاء بعد ماذا؟

بعد تكذيبهم وإيذائهم وتعذيبهم أصحابه؟

أم بعد إلقاء سلا الجزور عليه وهو ساجد، في المكان الذي يأمن فيه كل خائف؟

أم طلقاء بعد مقاطعته ومن معه وانحيازهم ضده حتىٰ يأكلوا ورق الشجر؟

أم طلقاء بعدما منعوه دخول مكة إلا في جوار رجل مشرك؟

أم طلقاء بعد تآمرهم عليه في دار النّدوة ليقتلوه أو يخرجوه؟

أم طلقاء بعد رصد بيته بعشرة شباب من القبائل بسيوفهم يرتقبون خروجه ليضربوه بضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فيروح دمه هدرا؟

أم الطلقاء بعدما اضطروه إلىٰ خروج منها مهاجرا وألجأوه إلىٰ الغار؟

أم الطلقاء بعدما جعلوا مائة من الإبلِ لمن يأتي به حيا أو ميتا؟

أم الطلقاء بعد مجيئهم بطْرا بطرا ورئاء بعد أن سلمت لهم تجارتهم؟

أم طلقاء بعد تحالفهم مع كعب بن الأشرف وتحزيب غطفان وغيرَهم ليستأصلوه من المدينة ومن معه، وما صدّهم إلا الخندق؟

أم طلقاء بعدما صدوهم عن البيت في عمرة الحديبية ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾[الفتح:٢٥]؟

نعم أنتم الطلقاء فلا مجازاة ولا عتب عليكم.

إنه العفو والصفح بعد القدرة.

فهل بعد هذا منازل علو القدر في نطاق البشر؟ لا، وألف لا.

فإننا نجد مصداق ذلك من شوهد في أوسع نطاق الحروب ماذا يفعل المنتصر من سلب ونهب وتقتيل واعتقالات وتدمير علىٰ حد قول بلقيس: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ [النمل:٣٤]، ولا غرابة؛ لأن قتالهم للسلطان والسلطة، أما هنا فلإعلاء كلمة الله، وكما قالت عائشة رضي الله تعالىٰ عنها: ما غضب ولا انتقم ﷺ لنفسه من قط.

ومسك الختام بعد هذه الجولة السريعة نأتي ونتمهَّل أمام المنهج القرآني المنزَّل وجاءت القاعدة القصوىٰ بالغاية القصوىٰ في هذا المجال فبيَّن منتهىٰ رفعة شأنه وعظيم عظمة قدره، فأدب الأمة معه ﷺ في جميع الجوانب وجميع الاعتبارات:

أولا جانب الرسالة باعتباره رسولا.

وجانب النبوة باعتباره نبيا.

وجانب الإنسانية باعتباره إنسانا وحرمة بيته.

والجانب العام باعتبار عموم حقه حاضرا أو غائبا.

وذلك في أوائل سورة الحجرات:

أما جانب الرسالة فقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [الحجرات:١]، أي كونوا متبعين إياه، ولا تتقدمون عليه ولا تقدمون آراءكم بين يديه؛ وذلك ردا عليهم في صلح الحديبية حينما توانوا في التحلل حين تمت القضية وتم الصلح حتىٰ رأوه ﷺ لنفسه ينحر ويحلق؛ بل جاء عمر إلىٰ أبي بكر وحاجّه علام نعطي الدنية في ديننا، ألسنا علىٰ الحق وهم علىٰ الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ ويقول له الصديق: بلىٰ ولكنه رسول الله فالزم غرسه يا عمر. ويقول عمر: وأنا أعلم أنه رسول الله. لاشك أن أبا بكر لم يرد فائدة الخبر عند البلاغيين؛ لأنه يعلم أن عمر يعلم أنه رسول الله؛ ولكنه أراد لازم الخبر وهو أنّ كونه رسول الله ﷺ يلزم اتباعه وهو إنما يعمل بتوجيه من الله، ولم ينتبه لها عمر وذهب إلىٰ رسول الله وعرض عليه ما عرضه علىٰ أبي بكر، كان جوابه طبق ما أجاب به أبو بكر: «**يا عمر أنا عبد الله ورسوله**» فكان ذلك من عمر تقدم بين يدي الله ورسوله وقد نزلت سورة الفتح في طريق العودة إلىٰ المدينة وبعدها جاءت سورة الحجرات.

أما جانب النبوة: فأدب في الحديث عنده ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ ولو كان الصوت بتلاوة القرآن، ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي نوعية الحديث وكيفيته مع شدة التحذير ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾[الحجرات]؛ أي لعدم إعظامكم عظيم قدره، ولا أحد عرفه إلا الرجل الثاني تحت النبي من هذه الأمة من لو وُزن إيمانه بإيمان الأمة لرجح عليها أبو بكر الصديق حين قال لعمر: إنه رسول الله فالزم غرسه.

ثم جاء التبيين لتنبيه الغافلين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾[الحجرات].

أما **الجانب الإنساني**: كرب أسرة وحرمة بيته وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾[الحجرات].

وأما **الجانب العام**: قوله ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الحجرات:٦-٧]، أي فإن الله يكشف لرسوله الحقائق.

فهذه النداءات للذين آمنوا، وتلك الآداب الرفيعة في حقه في مختلف المجالات ستظل قرآنا يتلىٰ لكل جيل بعد جيل والتي جل فهما علىٰ سادات الصحابة لهو كاف لبيان علو شأنه عند ربه وعظيم قدره علىٰ عموم خلقه.

ومن هٰذا المنطلق علىٰ هذا المنهج جعل ﷺ من الأميين في أقل مدة تاريخية خير أمة أخرجت للناس، أمة وسطا عدولا، أمة شهادة علىٰ الناس قبلهم، والرسول عليهم شهيدا.

وفي ذلك اليوم يكون الموقف الذي يتعطل البيان عنه، ويتلعثم اللسان فيه، ويحار العقل وتختلف المقاييس، موقف يشهده الأولون والآخرون وفيهم الأنبياء والمرسلون، حين يطلبون للشفاعة ويعتذرون ويقولون: نفسي، نفسي. وكلٌّ يحيل علىٰ من بعده، من آدم أبي البشر، إلىٰ الخليل أبي الرسل، إلىٰ موسىٰ الكليم، إلىٰ عيسىٰ كلمته وروح منه، حتىٰ يأتوا محمدا ﷺ فيقول: «**نعم، أنا لها، أنا لها**» فيذهب فيسجد تحت العرش، ويلهمه الله بمحامد لم يكن يعلمها قبل إلىٰ أن ينادىٰ: «**يا محمد ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع**». فيقول: «**يا ربي فَصْل القضاء.**» وهذا هو المقام المحمود الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون.

ثم يذهب ويطرق باب الجنة فيقال: من؟ فيقول: محمد. فيقول رضوان: نعم، لقد أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك، ثم يشفع له الله بالشفاعة في أمته حتىٰ يخرج من النار كل من قال: لا إلٰه إلا الله أو كان في قبله مثقال حبة من خردل من إيمان.

رزقنا الله وإياكم جميل حبِّه، وعلَّمنا عظيم قدره، وجعلنا في شفاعته، واتّباع سنته، صلوات الله ربي عليه وسلامه.

والسَّلام عليكم ورحمة الله تعالىٰ وبركاته.